

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

سلسلة الأبحاث المترابطة

بدايةً ببحث الطلب والإرادة قد تحدثنا بأن أساس هذا النقاش قد نبع بسبب موضوع الكلام النفسي ثم قد تطرقنا إلى هوبيه واستعرضنا الآراء حوله ثم أقررنا بالتغيير ما بين الطلب والإرادة من دون أن نعرف بتمامية الكلام النفسي، ثم من ذاك المتعلق قد قادنا النقاش إلى تنقیح الكلام النفسي والأجل ذلك قد احتجنا إلى تفسير مغزى الكلام بأنه قديم أو حادث ثم انجرّ بنا المقام إلى المبحث الكلامي حول نوعية تكلم الله تعالى ثم انطربت مسألة الصفات الإلهية كتكلم الباري فيسطانا الحوار بأن الصفات الذاتية هي عين الذات الإلهي، وذلك وفقاً للبرهان العقلي الذي قد استلهم هذه المعطيات من الأدلة النقلية (فالأوامر الشرعية ألطاف إلى الأوامر العقلية).

الانخراط ضمن بحث التكلم الإلهي
ويبدو نيراً أن سمة "تكلم الباري تعالى" تعدد من مواصفات الله تعالى حيث ينصّ قائلاً: وكلم الله موسى تكليماً.[1] وكذا الآية: و
ما كان لبشرٍ أن يُكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجابٍ أو يُرسل رسولًا فيُوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٰ حكيم.[2]

فمن المحتمل أن يُعد الاستثناء المذكور مُنقطعاً بحيث لا يتكلّم الله مع البشر كحوارهم الاعتيادي بل تتحصر صياغة كلامه تعالى إما بالوحى أو بالحجاب المكتون أو بإرسال الرسول، وهذه العناصر الثلاثة تختلف سخايتها مع الكلام البشري، فعليه إن مkalمة الله مع نبيه موسى قد تحقق بالوحى أو بالحجاب حيث يصرّ تعالى: فلما أتتها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين. فقد بان لك أن مكالمةه تعالى لم يكن من نمط التكلم المصطلح العرفى عبر الألفاظ، وقد تكاثرت الاستثناءات المعنقدة ضمن القرآن الكريم.

بينما جُمهور المفسّرين قد استظهروا منها الاستثناء المتصل بحيث تُعد تلك العناصر الثلاثة إحدى أشكال التكلم الإلهي فيندمج تكلّمه تعالى ضمن الوحى أو الحجاب أو إرسال الرسول.

فبالتالي، إن سمة التكلم تعد من أوصاف الفعل حيث يخلق الله الارتعاشات الصوتية بفعله تعالى وذلك وفقاً للروايات و لم يعتقد المتكلمين، بينما الفلسفه قد أدرجته:

1. أحياناً ضمن صفات الذات من بعد محدد.

2. وأحياناً ضمن صفات الفعل من جهة أن المكالمة تقوم بتواجد خطاب مع المخاطب لكي يتحقق التكلم نظير الرازقية والخالقية، حيث تتجلىان بخلق المرزوق والمخلوق، فامتداداً لذلك استحضر الكافي ضمن باب صفات الذات رواية متناسبة في هذا الحال:

عَلَيْ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدِ الطِّيَالِسِيِّ، عَنْ صَفْوَانَ بْنَ يَحْيَى، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: «لَمْ يَزَلِ اللَّهُ - عَزَّ وَ جَلَّ - رَبَّنَا، وَ الْعِلْمُ ذَاتُهُ وَ لَا مَعْلُومٌ، وَ السَّمْعُ ذَاتُهُ وَ لَا مَسْمُوعٌ، وَ الْبَصَرُ ذَاتُهُ وَ لَا مُبْصَرٌ وَ الْقُدْرَةُ ذَاتُهُ وَ لَا مَقْدُورٌ، فَلَمَّا أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ وَ كَانَ الْمَعْلُومُ، وَقَعَ الْعِلْمُ مِنْهُ عَلَى الْمَعْلُومِ، وَ السَّمْعُ عَلَى الْمَسْمُوعِ، وَ الْبَصَرُ عَلَى الْمُبْصَرِ، وَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْمَقْدُورِ». قَالَ: فُلُتُ: فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ مُتَحَرِّكًا؟ قَالَ: فَقَالَ: «تَعَالَى اللَّهُ، إِنَّ الْحَرَكَةَ صِفَةٌ مُحْدَثَةٌ بِالْفِعْلِ». قَالَ: قُلْتُ: فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ مُتَكَلِّمًا؟ قَالَ: فَقَالَ: «إِنَّ الْكَلَامَ صِفَةٌ مُحْدَثَةٌ لَيْسَتْ بِأَزْلِيهِ، كَانَ اللَّهُ - عَزَّ وَ جَلَّ - وَ لَا مُتَكَلِّمٌ».[3]

وَاتِّجاهًا مَعَ هَذِهِ الرَّوْايةِ قَدْ سَارَ الْمُتَكَلِّمُونَ مَسَارَ أَنْ عَمَلَيَّةَ التَّكَلُّمِ تَعْدُ مِنْ فَتَّةِ الْأَفْعَالِ لَا مِنْ صَفَاتِ الدَّازِّ، وَ لِهَذَا تُشَاهِدُ الْعَالِمَةُ الْحَلِيُّ الشَّارِخُ لِمَقَالَةِ الشَّيْخِ نَصِيرِ الدِّينِ الطَّوْسِيِّ، قَائِلًا:

الْمَسَأَلَةُ السَّادِسَةُ فِي أَنَّهُ تَعَالَى مُتَكَلِّمٌ:

قَالَ: وَ عَوْمَمِيَّةَ قَدْرِهِ تَدْلِيُّ عَلَى ثَبَوتِ الْكَلَامِ وَ النَّفْسَانِيُّ غَيْرُ مَعْقُولٍ.

أَقُولُ: ذَهَبَ الْمُسْلِمُونَ كَافَةً إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى مُتَكَلِّمٌ وَ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ فَعِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّهُ تَعَالَى أَوْجَدَ حُرُوفًا وَ أَصْوَاتًا فِي أَجْسَامِ جَمَادِيَّةٍ دَالَّةٍ عَلَى الْمَرَادِ وَ قَالَتِ الْأَشْاعِرَةُ أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ قَامَ بِذَاتِهِ مَعْنَى غَيْرِ الْعِلْمِ وَ الإِرَادَةِ وَ غَيْرِهِمَا مِنَ الصَّفَاتِ تَدْلِيُّ عَلَيْهَا الْعَبَاراتُ وَ هُوَ الْكَلَامُ النَّفْسَانِيُّ وَ هُوَ عِنْدَهُمْ مَعْنَى وَاحِدٍ لَيْسَ بِأَمْرٍ وَ لَا نَهْيٍ وَ لَا خَبْرٍ وَ لَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَسَالِيبِ الْكَلَامِ وَ الْمَصْنَفِ - رَحْمَةُ اللَّهِ - حِينَئِذٍ اسْتَدَلَ عَلَى ثَبَوتِ الْكَلَامِ بِالْمَعْنَى الْأَوَّلِ - بِمَا تَقْدِمُ مِنْ كَوْنِهِ تَعَالَى قَادِرًا عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ - لَا شُكُّ فِي إِمْكَانِ خَلْقِ أَصْوَاتٍ فِي أَجْسَامٍ تَدْلِيُّ عَلَى الْمَرَادِ وَ قَدْ اتَّفَقَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَ الْأَشْاعِرَةُ عَلَى إِمْكَانِهِمَا، لَكِنَّ الْأَشْاعِرَةَ أَثْبَتُوهُنَّ مَعْنَى آخِرٍ وَ الْمُعْتَزِلَةُ نَفَوْهُنَّ هَذِهِ الْمَعْنَى لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَعْقُولٍ إِذَا لَا يُعْقَلُ ثَبَوتُهُنَّ مَعْنَى غَيْرِ الْعِلْمِ لَيْسَ بِأَمْرٍ وَ لَا نَهْيٍ وَ لَا خَبْرٍ وَ لَا اسْتَخْبَارٍ وَ هُوَ قَدِيمٌ وَ التَّصْدِيقُ مُوقَوفٌ عَلَى التَّصْوِيرِ.[4]

إِذْنُ فَخَالِقُ الْحُرُوفِ وَ الْأَصْوَاتِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، فَبِالْتَّالِي سُتُّصْبِحُ فَائِدَةُ التَّكَلُّمِ هُوَ إِبْرَازُ مَا فِي الضَّمِيرِ فَعِنْدَئِذٍ سُيُطَّلِقُ عَلَيْهِ "الْكَلَامُ" فَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَبْدَى الْغَائِبَاتِ وَ أَوْضَحَ الْحَقَائِقَ بِبِرَكَةِ الْوَحْيِ إِلَى الْعِقْلِ الْأَوَّلِ وَ هُوَ خَاتَمُ الْمَرْسَلِينَ، إِذْنُ فَكَلَامُ اللَّهِ الْمُنْزَلُ ضَمِّنَ الدَّقْتَيْنِ يُعَدُّ مَرْتَبَةً نَازِلَةً وَ كَلَامًا حَادِثًا مِنْ ذَاكَ النُّورِ الْأَصْبَيلِ وَ الْكَلَامِ الْحَقِيقِيِّ الْقَدِيمِ، وَ لَا مَحْنُورٌ عَقْلًا بِأَنَّ يَخْلُقَ تَعَالَى نُورًا قَدِيمًا قَدْ تَوَاجَدَ بِالْعَرَضِ كَنُورُ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا يَسْتَبِعُ الشَّرْكُ فِي وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى الْقَدِيمِ إِذَا مَفْتُرُضٌ أَنَّ ذَاكَ النُّورَ الْأَوَّلَ يُعَدُّ مَخْلُوقًا عَرْضِيًّا قَدِيمًا لَا ذَاتِيًّا.

استحکامُ الْبَيَانَاتُ الْمَاضِيَّةُ بِمَقْوِلَةِ السَّيِّدِ الْخُمَيْنِيِّ وَ مُشَيَّاً فِي آفَاقِ هَذِهِ الْكَلَامَاتِ الْعَمِيقَةِ، قَدْ تَحَرَّكَ السَّيِّدُ الْخُمَيْنِيُّ بِأَنَّ التَّكَلُّمَ مِنَ الصَّفَاتِ الْذَّاتِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى - وَ هُوَ الشَّقُّ الْأَوَّلُ الْمَذْكُورُ - قَائِلًا:

أَمَّا فَسَادُ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ: فَلَأَنَّ إِحْدَاثَ الْكَلَامِ الْمَتَجَدِّدِ وَ الْمُتَصَرِّمِ بِلَا وَسْطٍ، مُسْتَلِزِمٌ لِمَفَاسِدِ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا التَّجَدُّدُ فِي صَفَاتِهِ وَ ذَاتِهِ، تَعَالَى عَنْهُ. وَ قَضَيَّةُ إِبْحَارِ الْوَحْيِ وَ إِنْزَالِ الْكِتَبِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمَرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ الْعِلُومِ الْعَالِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي قَلَّمَا يَتَّفَقُ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْشِفَ مَغَزَّاهَا (مَعْنَى الْوَحْيِ حِيثُ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَمْطِ الْكَلَامِ الْمَادِيَّةِ) كَتَلَمْهُ تَعَالَى مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ لَقَدْ أَشَارَ إِلَى بَعْضِ أَسْرَارِهَا قَوْلَهُ تَعَالَى: «نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ»[5]

وَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّهُ لِقُرْآنٍ كَرِيمٍ فِي كِتَابٍ مَكْتُوبٍ (فَلَيْسَ بِحُرُوفٍ مَادِيَّةٍ ضَمِّنَ كِتَابَ مَادِيٍّ) * لَا يَمْسِسُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»[6] وَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنْ هُوَ (الْقُرْآنُ) إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلِمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * نُوْ مِرَّةٌ فَاسْتَوْى * وَ هُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَنَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»[7] إِلَى آخِرِهِ، فَأَشَارَ إِلَى كِيفِيَّةِ الْوَحْيِ وَ نَزْوُلِ الْكِتَابِ بِوَجْهِ موَافِقِ

للبرهان (فهي حقائق ما وراء الألفاظ المادية) غير مناف لتنزيهه تعالى عن شوب التغيير، و وصمة الحدوث. ولعمري إنّ الأسرار المودعة في هذا الكلام الإلهي المشير إلى كيفية الوحي، و دنوّ روحانية رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم إلى مقام «التدلي» و المقام المعتبر عنه بـ«قاب قوسين» و ما يشار إليه بقوله «أوْ أَدْنِي»[8] ثمّ تحقّق الوحي، مما لم يصل إليه فكر البشر إلّا الأوحد الراسخ في العلم بقوّة البرهان المشفوع إلى الرياضيات و نور الإيمان. و المقصود: دفع توهم كونه تعالى متكلماً بإيجاد الكلام المتصرّم في شجرة أو غيرها، أو بقيام التكلّم به قياماً صدورياً، و الفرق بيننا و بينه: أنّ إيجادنا بالآلة و إيجاده بغيرها؛ فإنّ ذلك أيضاً ملازم للنصرّم و التغيير في الصفات و الذات. و ما قرع سمعك من بعض أصحاب الحديث[9] اغتراراً بظواهر بعض الأحاديث من غير الغور إلى مغزاها - من كون إرادته تعالى حادثة مع الفعل، و من صفات الفعل مما يدفعه البرهان المتيّن، جلّ جنابه تعالى أن يكون في ذاته خلوًّا عن الإرادة التي هي من صفات الكمال للموجود بما أنه موجود، و كونه كالطبائع في فعله الصادر من ذاته؛ للزوم التركيب في ذاته، و تصور ما هو الأكمل منه، تعالى قدسه.[10]

وجهُ نظر الأسفار في هذا المضمار
و في جادة البحث نستحضرُ مقالة الأسفار أيضًا، حيث يقول:

الفصل في تحصيل مفهوم التكلم: اعلم أن التكلم مصدرٌ صفةٌ[11] نفسيةٌ مؤثرةٌ لأنّه مشتق من الكلم و هو الجرح و فائدته الإعلام و الإظهار فمن قال إن الكلام صفة المتكلّم[12]

فحصاد الحوار هو أن الكلام الماديّ يُعدُّ إحدى حصص الكلام الحقيقى إذ الكلام الحادث يُشير إلى ما في الضمير فيُعربُ عن المعنى المُخبأ في النفس، لأنّ إن الكلام الحقيقى ذو سعةٍ معنائيةٍ ما وراء اللفظ، ولهذا يندرجُ الكلام الإلهيُ ضمن صفات الذات من هذا البعد - و هو الشقّ الأول المذكور - حيث إنه تعالى قبل إرسال الرسول كان متكلّماً بينما لم يتواجد أيّ مخلوق متكلّم آخر ثم خلق الخلق فأوجّد لهم الكلام الحادث، وهذا ما أعلنته الرواية التالية:

«إِنَّ الْكَلَامَ صِفَةً مُحْدَثَةً لَيْسَتْ بِأَزَلَّيَةٍ، كَانَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَلَا مُتَكَلِّمٌ».»

إذن، فالكلمات الصادرة للأنبياء أو للبشر تُعدّ كلمات حادثة كاشفةٍ عن المعاني المستودعة في ذات الله - أي أم الكتاب - و لهذا يُصبحُ الكلام الإلهيُ قديماً في ذاته لأنه تعالى قد كان منذ الأزل دائم الفيض على المستفيض الأول - غير الزمانى - و هو النور الأول - أي خاتم الأنبياء - ثم أوجّد الكلام الحادث ضمن مرتبة منخفضة تناصفاً مع الدنيا المادية، و هذا ما توحّاه السيد الخميني قائلًا:

و قال بعض أهل التحقيق[13]: إن إطلاقه عليه لقيام التكلّم به (فنفس الصفة قديمية لا الكلام الفعلى الموجّد لأنّه في المرتبة النازلة فيختلف عن المرتبة العالية المستودع في النفس الإلهي) لا الكلام؛ قياماً صدورياً لا حلولياً، كما أن إطلاقه علينا أيضاً كذلك إلا أنّ الفرق: أنّ إيجادنا بالآلة، دونه تعالى. و ذهب الأشاعرة[14] إلى أنّ كلامه تعالى ليس من جنس الأصوات و الحروف، بل هو معنى قائم بذاته تعالى في الأزل، يسمّى الكلام النفسي، و هو مدلول الكلام اللغطي المركّب من الحروف، و منه الطلب القائم بنفسه، و هو غير الإرادة. و القول الحقّ الموافق للبرهان: أنّ إطلاق المتكلّم عليه تعالى ليس لذاك و لا لذا.[15]

[1] سورة النساء، الآية 164.

[2] سورة الشورى، الآية 50.

[3] الكافي (دارالحديث)، جلد: ١، صفحه: ٢٦١، ١٣٨٧ هـ.ش.، قم - ایران، مؤسسه علمی فرهنگی دارالحديث. سازمان چاپ و نشر

[4] علامه حلی، حسن بن يوسف. كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم. صفحه: ٢٨٩

[5] [5] الشعراء (26): 193 - 194.

[6] الواقعه (56): 77 - 79.

[7] النجم (53): 4 - 11.

[8] النجم (53): 9.

[9] انظر الكافي 1: 111 - 112، التوحيد: 148، بحار الأنوار 4: 134 - 147.

[10] الطلب و الإرادة، ص: 15، بل أوضح الآيات دلالةً على أن القرآن ليس لفظاً الآية التالية: ما كنت تدرى ما الكتاب و لا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا.

[11] بالإضافة بيانه هذا في المتكلم الإمكانى غنى عن البيان و أما في المتكلم الوجوبي فلما كان تكلمه عين ذاته فهو مصدر لكل كلمة تكوينية فضلاً عن اللفظية و تكلمه صفة نفسية أي نفس ذاته المتعالية مؤثرة لأن جميع الكلمات التامات و ما دونها آثار ذاته معربة عن الضمير الذي هو غيب الغيوب و من (علماء الكلام) قال تكلمه (الله) خالقته للكلام إن أراد هذا الإعراب و بالكلام العقول التي هي الكلمات التامات لكن حسناً كما أن من قال بالكلام النفسي إذا أراد جامعية ذلك الوجود البسيط الأقدس جميع الكلمات بمصداق واحد بسيط لكان موجهاً.

[12] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربع، قم - ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: 7، صفحه: ٢

[13] انظر الحكمة المتعالية 7: 4، نهاية الدراسة 1: 261 - 268.

[14] شرح المقاصد 44: 146 - 147، شرح المواقف 8: 93.

[15] الطلب و الإرادة، ص: 14